عينة للقراءة من رواية

مونيكا هيلفر

الأمتعة

لمزيد من المعلومات حول هذا الكتاب طالعوا الرابط التالي

www.hanser-literaturverlage.de

©2020 Carl Hanser Verlag GmbH & Co. KG, München

مونيكا هيلفر

الأمتعة

رواية

دار نشر كارل هانزر

9. Auflage 2020

ISBN 978-3-446-26562-2 © 2020 Carl Hanser Verlag GmbH & Co. KG, München Umschlag: Peter-Andreas Hassiepen, München Motiv: © Gerhard Richter 2019 (0227) Satz: Gaby Michel, Hamburg Druck und Bindung: CPI books GmbH, Leck Printed in Germany

إلى أمتعتي

هاك، امسك قلمًا، ارسم بيتًا صغيرًا، جدول مياه كائنًا جنوبي البيت بمسافة قصيرة، بئر، ولكن لا ترسم شمسًا، فالبيت يقبع في الظل! يجثم الجبل هناك بالخلف- كما لو كان حجرًا عموديًا. هناك امرأة مشدودة القوام تقف أمام البيت، تنشر الغسيل على الحبل المتهدل بعض الشيء والمعقود فيما بين فرعين من شجرة كرز، أحدهما على يمين الشرفة المؤدية إلى باب البيت والثاني على يسارها. ها هي لتوّها تثبت بمشبك سروال أطفال وسترة صغيرة، أي أن لديها أطفال صغار. إنها تغسل كثيرًا، أغراض أطفالها وزوجها وأغراضها هي نفسها، إذ تمتلك بلوزة بيضاء ذات جمال خاص. وهي تريد أن تكون عائلتها نظيفة مثل عائلات المدينة. لديها الكثير من الأغراض بيضاء اللون، مما يبرز شعرها الداكن وكذلك عينيها الداكنتين فضلاً عن شعر زوجها الداكن وعينيه الداكنتين، بينما لا يرتدي سكان القرية الآخرين اللون الأبيض إلا نادرًا، بل وحتى يوم الأحد. يكتسي وجهها بملامح الجدية وعيناها غائرتان. ارسم العينين بقلم فحم! والشعر الملتصق بالرأس أسود ممزوج باللون البني، لأن قلم الفحم انكسر. فالألوان جيدة النوعية، لا تلمع فضلاً عن كونها غالية الثمن.

تهب الواقعية على الصورة وتتغلل داخلها، باردة بلا هوادة، حتى الصابون شَح. الأسرة فقيرة ليس لديها سوى بقرتين وعنزة. خمسة أطفال. الزوج أسود الشعر مثل زوجته، بل أن شعره لامع، فهو رجل وسيم، تبلغ وسامته ضعف الآخرين. وجهه نحيل، لكنه يخلو من البهجة، كما هو بادي في الصورة. أما السيدة التي تبلغ بالكاد الثلاثين من العمر فهي تعرف أنها محط إعجاب الرجال، ولا تعرف واحدًا منهم تشعر حياله بأنها ليست متأكدة من ذلك. عندما يجذبها زوجها نحوه، فهو يتحسس نهديها وبطنها،

هكذا يقول بالضبط، حتى يفقد وعيه ويسقط على الفراش من فرط التعب. تخلع ملابسها بسرعة وتستلقي إلى جواره وتعرف أنه يتظاهر بالنوم فقط، إذ لا يريد أن يخفق. لذا لم تخلع سروالها الداخلي. حتى لا يكون كل شيء جليًا على الفور. تنظر عبر النافذة المفتوحة لترى سماء الليل. لا يظهر حتى القمر من وراء الجبل. فهو يتحرك أحيانًا ليمر بسرعة، حينئذ يمكنها أن ترى شعاعه الخافت فوق قمة الجبل. فجأة يصرخ أحد الأطفال، بينما تعرف هي مَن منهم، ثم يبكي آخر وتعرف هي مَن. ولكنها لا تتمكن من النهوض. إنها ليست مجهدة،. تفكر في نفسها قائلة أشعر بالخمول فقط. تُرى كم من العمر سأبلغ.

الفتاة، ذات السنتين من العمر، تقف أمام السرير، في منتصف الليل. إنها مارجريتا. جريتا. إنها ترتعد.

تهمس الفتاة: "أمي"

تهمس الأم بدورها: "تعالي!"

تتسلل الصغيرة إليها أسفل الغطاء. يجب ألا يعرف الأب ذلك. لذا لا تستلقي الفتاة بين أبويها، بل تنام على طرف السرير. ويتعين عليها أن تتشبث به جيدا، حتى لا تسقط على الأرض، إذ أن السرير عالي.

كانت هذه الفتاة أمي. مارجريتا. فتاة خجولة، في كل مرة تقابل فيها أبيها كانت تتهرب وتحدق في تنورة أمها. كان الأب حنونًا تجاه الأبناء الأربعة الآخرين. بل كان حنونًا بوجه عام، وسيكون كذلك تجاه الطفلين الذين سيولدان لاحقًا. وحدها هذه الفتاة التي كان يبغضها، مارجريتا، التي ستصبح أمي، لأنه كان يظن أنها ليست ابنته. لم يشعر بالحنق تجاهها، ولا بالغضب، كان يبغضها، يشمئز منها، كما لو كانت رائحة الدخيل الثقيل تنبعث منها طوال عمرها. لم يضربها قط. بينما كان يضرب الأطفال الآخرين أحيانًا. أما جريتا فلم يضربها أبدًا. إذ لم يرغب في لمسها حتى بالضرب. كان يتصرف كما لو أنها ليست موجودة. لم يتحدث معها كلمة واحدة أبدًا حتى وفاته. وهي لا تتذكر أنه نظر إليها ذات مرة. هذا ما حكته لي أمي حينما بلغت الثامنة من عمري. لم يرغب جدي في التعامل مع الفتاة الخجولة. بينما كانت جدتي ترى أن هذا هو السبب في أن تغمر الخجولة بمزيد من العطف وتحبها أكثر من الأطفال الآخرين. ماريا، هكذا كانت جدتي الجميلة تُدعى، تلك المرأة التي كان جميع الرجال ليلاحقوتها لو لم يمنعهم خوفهم من زوجها.

لكنني أستبق الأحداث. إذ تبدأ هذه الحكاية قبل أن تولد أمي. تبدأ الحكاية قبل أن تكون نُطفة من الأساس. تبدأ بعد ظهيرة أحد الأيام حينما كانت ماريا تنشر الغسيل على الحبل مرة أخرى. كان ذلك في أوائل شهر سبتمبر/أيلول من العام 1914. حيث رأت ساعي البريد على الطريق هناك في الأسفل. رأته من بعيد.

كان المنظر من فناء البيت يشمل الوادي وصولاً إلى برج الكنيسة أسفله، ذلك البرج الذي كان يبرز عاليًا فوق أشجار الزيزفون. كان ساعي البريد يدفع الدراجة، لأن الطريق صعودًا إلى البيت

الصغير كان شديد الانحدار. كما أن الطريق بعد التفريعة لم يكن ممهدًا وكثير الحصى. كان الرجل منهكًا وأراد أن يُطلق عليه مُسمى المساعد، فالاسم الرسمي لعمله هو حامل البريد المساعد. كما كان يرتدي زيًا رسميًا به أزرار لامعة. كان يتصبب عرقًا، وحل رباط عنقه بعض الشيء كما فتح زر ياقة القميص. خلع قبعته لبرهة بغرض التحية وتهوية رأسه. إرتدت ماريا خطوة للخلف حين مد إليها يده بالخطاب. كان خطابًا أزرق اللون مثبت به كعب منفصل من الأمام يمكن شده. يتعين التوقيع على هذا الكعب وإعادته إلى الراسِل. كانت الدولة هي الراسِل وترغب في الإمساك بدليل في يديها على الاستلام. كان المساعد يعرف أنها تعرف أنها تعجبه، بل وأنه يشعر حيالها بما هوأكثر من ذلك. كما كان يعرف أنه لا يشكل لها فارقًا. فضلاً عن أنه لا يتسم بنصف وسامة جوزيف، زوجها العبوس، إذا ما كان بالإمكان قسمة المظهر الوسيم أو مضاعفته.

إستهجن المساعد الطريقة التي كان الرجال في القرية يتحدثون بها عن جوزيف وماريا. إذ كانوا يقولون أن الأطفال ليسو إثباتًا لأي شيء، وهم على أية حال ليسوا دليلاً على فحولة الرجل من عدمها، بل أن أربعة أطفال لن يمكن أن يثبتوا أي شيء. فالمرأة تستطيع إنجاب أطفال، حتى وإن لم يكن الرجل يعجبها، تلك هي الطبيعة، والطبيعة لا علاقة لها بالحب. وكون اثنان يُدعيان بمحض الصدفة جوزيف وماريا، فإن هذا لا يعني أي شيء على الإطلاق، بل على العكس. هكذا كان الرجال يفضلون الأمر. إذ فكروا أنهم بهذا يكون لهم أفضلية لدى ماريا الجميلة. لم يحدث وأن رأى أحد كلا الزوجين يذهبان إلى القرية معًا أبدًا. وهو ما فسره الرجال كما يحلو لهم ورأوا فيه دليلاً آخر. وإذا رآهما أحد فهو يزعم أنهما ليسا سعداء معًا، ولا يوجد انسجام

بينهما، لأن جوزيف يبدو جادًا دائمًا، وماريا كذلك معظم الأحيان، كما لو كانا قادمين لتوهما من شجار. ولكن هؤلاء الرجال لم يكن لديهم أدنى فكرة؛ لأن ماريا كانت تحب الاستلقاء بجوار جوزيف وهو يعانقها بذراعيه، حيث تشعر بالإثارة. وهو أيضًا أحيانًا. ما كان يدور بين الاثنين بعيدًا كل البُعد عن كونهما يطفئان أنوار الشموع عندما يستلقيان بجانب بعضهما بعض. بعيد كل البُعد. وعندما يطفئان الأنوار يحدث أن يظلا يتحدثان معًا لفترة طويلة.

كان المساعد يوزع البريد مرة واحدة أسبوعيًا في هذا المكان النائي؛ نظرًا لأنه يقع على ارتفاع كبير والوصول إليه مرهق. ونادرًا ما كانت ماريا وحدها، ونادرًا ما كانت تقف أمام البيت، فهو غالبًا ما كان يضطر للطرق على الباب دون أن يفتح له أحد. هل يتحمل عناء الطريق دون طائل مرة وراء الأخرى؟ كم كان يفضّل أن يكون لهؤلاء الناس، الذين يسكنون خارج القرية وموزعون هنا عاليًا، أصدقاء في القرية بالأسفل، أو على الأقل شخص واحد يثقون فيه، ليمكنه ترك الخطابات لديه حتى يمروا هم بعدها ليأخذونها بأنفسهم... إلا أن هناك خطابًا واحدًا من الدولة يتعين تسليمه شخصيًا. وفكر المساعد بأنه ربما يتمكن من رؤيتها اليوم على الأقل.

كان كل شيء يخص القرية نائيًا، حيث يستغرق الوصول إلى أبعد مزرعة من الكنيسة ساعة من الزمن. هناك ست مزارع كائنة على أطراف القرية ليبدأ الجبل من خلفها. والقاطنون تحت سفحه لم يكن لهم علاقة جيدة بأحد في القرية، كما لم تكن العلاقة فيما بينهم جيدة. والمقصود بكونها ليست جيدة أنهم لا يرغبون في معرفة أحوال الآخرين، ليس أكثر. كانوا يسكنون هناك لأن أسلافهم جاءوا متأخرين عن غيرهم وأن الأرض هناك كانت الأرخص سعرًا. وكانت الأرض الأرخص سعرًا، لأن العمل بها

كان شاقًا. في أقصى بؤرة هناك عاليًا كان جوزيف وماريا يسكنان مع عائلتهما. أطلق الناس عليهم مُسمى " الأمتعة". كان هذا الاسم يُطلق منذ زمن بعيد على "الأغراض المُحمّلة للشحن"؛ لأن والد جوزيف وجده كانا حمّالين، أي من الفئة التي لا تنتمي لأحد، وليس لها مسكن ثابت يأويها، وهم يتنقلون من مزرعة لأخرى طلبًا للعمل، وفي فصل الصيف يحملون أكوام القش الضخمة في مخازن غلال المزارعين، كانت تلك أدنى درجات المهن من بينها مهنة المزارع الأجير...

كان الخطاب من قوات الجيش. كان أمر تجنيد. فقد أعلنت النمسا الحرب على صربيا، فساندت روسيا صربيا على الفور، بينما كان الإمبراطور الألماني حليفًا للنمسا، فأعلن بدوره الحرب على روسيا، ولما كانت فرنسا حليفًا لروسيا، فقد أعلنت الحرب على ألمانيا والنمسا، كما زحفت القوات الألمانية نحو بلجيكا.

ظل ساعي البريد ممسكًا بالخطاب الأزرق في يده. بينما كان بداخله يحلم بأن يقف معها، أن يحدث أي شيء ليقف مع ماريا لتدرك أخيرًا ماهيته في الحقيقة. كم كان يرغب في تحريرها من زوجها، وتخيل أنها تعاني منه، وتخيل كذلك أنه شخص يمكنه إظهار الكثير من المودة عندما يتطلب الأمر ذلك، وليس فقط لفترة وجيزة، لمدة ليلة واحدة أو ما شابه، بل حتى يفرق بينهما الموت. لم تكن هناك بقع حمراء في وجهها أو على رقبتها. كما لم ير تجاعيدًا صغيرة، سواء بين عينيها وصولاً إلى الجبهة، أو بجانب الفم بل ولا من زاوية العينين حتى الصدغين. كانت يداها خشنتين، ولكن من الداخل فقط. هناك بأعلى كانا شبه مُنعمين. كان زوجها يغيب عن المنزل كثيرًا. بحجة أن لديه أعمال يؤديها. أما طبيعة هذه الأعمال، فلم يعرف المساعد عنها شيئًا، كما لم تعرفها ماريا نفسها أيضًا. كان الناس في القرية يحدسون أنها أعمال ملتوية

ومشبوهة. كان جوزيف معروف عنه أن يبادر بالضرب على الفور. ولكن الرجال كانوا بهذا يهدئون أنفسهم فقط، ويبررون جبنهم أمام أنفسهم. حتى أن أحدًا منهم لم يتجاسر على مخاطبة ماريا مباشرة. طبعًا لأن جوزيف شخص يضرب على الفور بكل وحشية. إلا أن أحدًا لم يره بعينيه وهو يوسع شخصًا ضربًا.

قال المساعد إن الخطاب من الجيش، ويتعين على ماريا التوقيع لتأكيد استلامه. وطلب منها أن تضيف كلمة "الزوجة" بين قوسين. كان يحمل قلم حبر نسخ، إلا أنه لم يكن له لزوم. إذ كان هو نفسه يلعق القلم.

كانت ماريا تعلم أن هناك حربًا دائرة، ولكنها لم تدرك أنها سيكون لها بها علاقة ذات يوم، وأنها ستسمع أصواتها حين تتغلغل داخل الأمكنة وتصل عاليًا إلى أقصى وادي في الظلال أسفل الجبل. كان هذا أمرًا لم يدر بخاطرها مطلقًا حتى تلك اللحظة. لم يكن بإمكانها إعادة سرد ما جاء في الخطاب المطبوع من تفاصيل. كل ما أدركته هو أن: زوجها "جوزيف موسبيرجر" عليه الذهاب إلى الحرب.

كان عمدة البلدة اسمه "جوتليب فينك"، وكان هو أيضًا يمارس بعض الأعمال. وهو الوحيد الذي كان يتحدث مع جوزيف حول الأمور المُلحة. أي أحاديث تطول عن ترديد كلمات: نعم، لا، مرحبًا، ثم مرة أخرى نعم، لا. كان جوزيف يهبط من الجبل أحيانًا، ليتوجه مباشرةً إلى منزل العمدة، ويدخله دون أن يطرق الباب أو ينادي من الخارج، ثم يظل في البيت لمدة ساعة كاملة. إلا أن الاثنين ليسا بالأصدقاء. علمًا بأن العمدة كان يتمنى أن يصبح صديقًا لجوزيف موسبيرجر؛ فهو الوحيد الذي يمكنه التحدث إليه؛ لأنه أولاً: لا يعاني من أية أمراض، وثانيًا: لأنه لا تنبعث منه رائحة كريهة مثل الحيوانات، وثالثًا: لأنه لم يكن أحمق،

فهو يستطيع القراءة والكتابة، وهو أكثر من مجرد ماهر في الحساب. ما عليك سوى أن تضع أمامه عمليات ضرب صعبة حتى يُقلِّب عينيه ليأتي بالإجابة على الفور. كان العمدة سخيًا. فهو يقسم مكاسب الأعمال دائمًا، حتى وإن لم يشارك جوزيف بها تقريبًا. دائمًا النصف بالنصف. لم يكن جوزيف سخيًا. ولكن العمدة لم يأخذ عليه ذلك. كان العمدة يمتلك أبقارًا وخنازيرًا ودجاجًا وبعض العنزات. وهي أغراض كان يمتلك مثلها الجميع، ولكنه بالإضافة لذلك بنى ورشة مُلحقة بالبيت. كان صانع أسلحة مُدرّبًا. اعتاد فيما مضى أن يلف مواسير البندقية بنفسه، ويُشكلها، وأن ينشر المكابس ليقطعها بنفسه، ويصقلها، ويزيتها، ويلمعها. إلا أنه في غضون ذلك أصبح يجلب الأجزاء المتفرقة من منطقة جنوب ألمانيا ليجمّعها معًا. الأمر الذي كانت تكلفته أقل، لكنه يجلب المزيد من المكاسب. كان يثبت خاتم شعاره المعدني على هذه القطع لتتحول تلك القطعة المُجمعة إلى قطعة سلاح أصلية. إذ أن قطع السلاح المُجمعة تلك ظلت تتمتع بسمعة طيبة، كما لو كان كل شيء بها وكلها مصنوعة يدويًا. كان العمدة قد أهدى جوزيف بندقية، بندقية ذات ماسورة مزدوجة. كان هذا أمرًا يتجاوز السخاء. وهو ما تعجب له الجميع. فهو يفسر كل شيء، رغم أن أحدًا لم يعرف تحديدًا ما يفسره. وهو ما قد يتطلب من أحد النجارين العمل لأكثر من ستة أشهر. ربما كان جوزيف صديقه فعلاً. مجرد أنه كان يتظاهر كما لو أنه ليس في حاجة لصديق، لا يعني أنه لا يحتاج حقًا إلى صديق.

عند وصول أمر الاستدعاء للجيش، احتاج جوزيف إلى صديق. لم يتم استدعاء العمدة، والسبب: أن هناك احتياج إليه في بلده. هذا صحيح: جوزيف على سبيل المثال يحتاج إليه.

كان جوزيف يحب زوجته. لم يقل هو نفسه هذه الكلمة مطلقًا. لم يكن هناك وجود لهذه الكلمة في اللغة الدارجة. ولم يكن بالإمكان قول كلمة أحبك في اللغة الدارجة. لذا لم يفكر أبدًا في هذه الكلمة أيضًا. كانت ماريا ملكًا له. وهو كان يريد أن يملكها وأن تنتمي إليه، فالفعل الأول يعني الفراش بينما يعني الأخير العائلة. عندما كان يمر في القرية، ويرى الرجال عند البئر وهم يلعبون بالسكاكين الخشبية التي صنعوها بأنفسهم، وعندما كان يرى أنهم رأوه كان يقرأ في نظراتهم: أنت زوج ماريا. لا أحد منهم لم يفكر كيف سيكون الحال معها. والآن، وبعد أن تسلم أمر الاستدعاء ظن بعضهم أن هناك فرصًا تلوح في الأفق. فرص متوسطة الحجم، لأن لا أحد كان يعرف بالضبط إلى متى ستدوم الحرب، حتى وإن كان الناس يسمعون شيئًا من فيينا تارة ومن برلين تارة أخرى، ما يفيد بأن المسألة ستنتهي في القريب العاجل، إلا أن أحدا لم يرغب في أن يراهن على ذلك.

ذهب جوزيف إلى عمدة البلدة وقال: "هل يمكنك الاعتناء بماريا أثناء وجودي في ميدان المعركة؟"

كان العمدة يعرف المقصود بالاعتناء بها في هذه الحالة. حيث فكر أن جوزيف يعني في المقام الأول أنه لا يستطيع أن يثق بزوجته. فهل يمكنها هي أن تثق بنفسها؟ كان هذا هو السؤال! إنها تنظر إلى نفسها في المرآة كل صباح!

لم يكن هناك شخص آخر شاهد على هذا الحديث. حديث شائك لا يحتمل شهودًا. كيف كان العمدة ليجيب على زوج جدتي؟ هل كان ليجرؤ على أن يقول: "هل تعني أنني يجب أن أراعي ألا يصعد أحد إليها عندما ترحل؟"

وجوزيف؟ قال: "نعم، هذا ما أعنيه."، ثم ربما كان ليعترف أنه لا يثق بزوجته.

قال جوزيف: "نعم، فلتحرص على ألا يصعد إليها أحد."

كان عمدة البلدة من شأنه أن يسأل: "ولماذا؟" إلا أنه بذلك كان سيضايق جوزيف، وهو ما لا يرغب فيه. هل من المتوقع أن يعامل أحد رجال القرية، أو أحد من أي مكان آخر ماريا الجميلة بعنف؟ في مثل هذه الحالة سيتطلب الأمر تدخل عمدة البلدة؟ وما الذي سيعنيه ذلك؟ هل سيعني أن يطلق النار على من يفعل ذلك؟

قال عمدة البلدة: "سأهتم بها. لا تقلق وأنت في الحرب يا جوزيف."